قصة البخت النـــائم

للشاعر عثمان حلمى

— ٢ —

سار حتى بلغَ الروضَ النضيرا وهنا أبصر فى الليـل خيالا
واقفاً ينتظرُ الامر الخطـيرا شبحاً يزداد بالليـل جلالا
الشيخ : قال إنى لا أرى الا حقيرا مقبلاً أم سارقاً يبغى نضالا
لستَ يا هذا على الشر قديرا أن تنالَ الليل من شرٍّ منالا
عُدْ كما جئت ويكفيكَ خبالا
اننى أحمى الفتى نفساً ومالا

يحيى : أنت من أنتَ وما ذا تلفظُ ؟ ما الذى تبغيه منى ؟ ما تريدْ ؟
البخت : إننى حظ أخيـك اليقظُ إننى أحميه من كل حسودْ
يحيى : كيف عن روض أخى تمنعنى وأخى أقربُ لى من كل فردْ ؟
مالُه مالى فلا يُرجعنى عن دخول الروض فى الناس أحدْ ؟
البخت : إننى أحميه من كلّ حقودِ منـك أحميـه ومما تحملُ
لم تسدْ فى قومها نفسٌ حسودِ لا ، ولا ساد بحقـدٍ رجلُ
يحيى : فاذنْ قل لىَ مَنْ أنت اذنْ اننى كدت لمـا ألقى أجنْ
البخت : قلتُ إنى بختُه الصاحى فلا تُكثرْ السؤلَ هنا والجـدلا

أيها الحاقد لا تحقدْ على أحدٍ فالحقدُ يُدنى الزللا
لا يُنيل الحقدُ يوماً أملا لا ، ولا للحظ حقدٌ بدلا
وإذا ما الحظ يوما أقبلا يُنبتُ الزهرَ بصخرٍ أمحلا
إنّ للحظ جنوداً وعلى
أمرها قامت جنودٌ فى العلى

يحيى : إيه يابختَ أخى الصاحى ألا دلنى إن كنت تدرى أين بختى
لم أحقق فى حياتى أملا لا ، ولا أبهجنى زرعى ونبتى
كلما أزهر روضى ذبلا عَمِلَ الحظُ على ذُلى ومقتى
وسعى الدودُ به حتى خلا وكظمت الغيظ فى صبرى وصمتى
دلّنى إن كنت تدرى أين بختى
فلقد فضّلت عن عيشىَ موتى

البخت : بختكَ النائم فى قفرٍ بعيدِ فى بلادٍ غير هذا البلدِ
دونه بيدٌ ترامت بعد بيدِ وسبيلٌ فى طريقِ الاسدِ
فستلقاه وحيداً فى صعيدِ نائماً من تعبٍ فى مرقدِ
سرْ إلى بختك فى عزمٍ شديدِ وتزوّدْ بالمنى والجلدِ
إن صحا من نومه لم يرقدِ
بعدها حتى انتهاءِ الابدِ

إن صحا من طولِ نومٍ لم ينمْ بعد أن يصحوَ لا يهوى الكرى
لا تُرعْ من شكلهِ حين يَهِمْ لا ، ولا تخبره عما قد جرى
لا ، ولا تغلظْ عليه بالكلمْ فهو بالغيب عليمٌ قد درى
كلُّ ما قد خَطَّ فى الغيب القلمْ وهو يدرى الغيب من شأن الورى
ويرى من أمرهم مالا ترى
يعلم الحكمة فيما قُدّرا

سرْ ودعنى إننى بختُ أخيكا بخته الصاحى الذى لا يرقدُ
سرْ الى بختكَ إنى سأريكا أين تلقاه وماذا يقصدُ
فهو يورى شعلةَ الآمال فيكا ويُريكَ السعد فيما تَنشدُ
سرْ فانى لا أرى السعدَ وشيكا أن ترى نيرانه لا تخمدُ
ثم عُدْ فهو أمينٌ مرشدُ
صادقٌ يرعاكَ فيما تقصدُ

رَجعَ السارقُ عماد بّرا يائساً فى نفسه من كل شرْ
ومضى عما أتى معتذرا للذى فى كفّه سيرُ القدرْ
غادرٌ لكنه ما غدرا كلما فكّر أعيته الفكرْ
أنما سار وأيان سرى يوسعُ النفسَ بوخزٍ كالابرْ
أنا أجزيه من نفسى بضرْ
بئس من يحمل حقداً أو غدرْ

وسعى فى ألم يُبرى الندمْ نفسَه الحيرى على ما فكرا
واثنى فى ذلةٍ عما عزمْ خائر الأعصاب ينوي السفرا
لترى فى وجهه لونَ الألمْ ويُبين الوجه ماقد أضمرا
أىُّ سرٍّ هو فى النفس كُتِم لم يَلُحْ فى الوجه أو ما ظهرا
لترى فى كلِّ وجهٍ أسطرا
كتبَ الدهرُ عليها ماجرى

ومضى لا ينثنى عما عزمْ يتولىَّ صامتاً شأنَ الرَّحيل
كل ما يحمل من وجد وهمْ واضح فى ذلك الوجه الجميل
هدم الدهر به ما قد هدمْ من كيانِ الجسم والقلب العليل
ومحا من وجهه ما قد رسمْ فيه من نور سوى زرٍ قليل

فهو كالوردةِ تسقى للذبول
رافلٌ فى خرقِ كابنِ السبيل

وسعى يحملُ زادَ السفرِ كلَّ ما قد خفَّ فيما يحملُ
شرُّ ما يقنيهِ حملُ الفكرِ يتجلَّى فى دجاها الامَلُ
لم يدع من خلفه من أثرٍ غير دمعٍ بالأسى ينهملُ
تركَ البيت بلا منتظرٍ ومضى حيث يريد الرَّجلُ
فى ظلامٍ حالكٍ ينتقلُ
يتولاه الاسى والوجلُ

وهنا أطرق فى ذل وحزنٍ وتولته ضروبُ الشجنِ
أىُّ نفسٍ لو رأتْ جنةَ عدْنٍ فضلتها عن جحيم الوطنِ
أى قلب كان من إنس وجنٍّ لم يزلزله فراقُ السكنِ
غير أنَّ النفس يغريها التمنِّى فترى فيه ضروبَ الفتنِ
ويرى الانسانُ غيرَ المكنِ
طمعاً فى الخير مثلَ المستكنِ

وسرى يحدو به صوتُ الطمعْ فى قفارٍ دونها هول القفارِ
تارةً يهوى وأخرى يرتفعْ فى هضاب الارض أو قفر الصحارى
لوَّحته الشمس حتى لم تدعْ موضعاً لم تُصله منه بنارِ
وهو فى قوة نفسٍ تندفعْ فى اقتدارٍ دونه كلُّ اقتدارِ
وكأنى بالفتى فى الليل سارى
قاتل يهرب أو ساعٍ لثارِ

وهو فى وحشته لا مؤنسُ تتعزَّى نفسُه الحيرى بهِ
غير اشجان بها تحتبسُ وطماحٍ مستكنٍّ فى قلبهِ
ساعة يسعى وأخرى يجلسُ آخذاً من زاده أو شربهِ

بعضَ ما يحمل هـذا النفسُ من حطام خففتْ من كربهِ

ولقد يلهو بها عَمّا بهِ
لحظة من همه أو رُعبهِ

فاذا ما نال من راحتـهِ ما يُعيد العزمَ فيـه انطلقا
ينهب الأرض الى حاجتهِ ساعياً يطوى الفلا والطرقا
ويروضُ النفسَ فى شدتهِ كلما شاهـد منهـا نزقا
مفرد يشقيه من وحدته وحشةٌ أوجعُ من كلّ شقا

ويعزى نفسَه بالملتقى
ملتقى البخت إذا ما أطرقا

وسعى حتى رأى عن كثب أسداً يرعى الفلا فى غضبِ
أين من صادفه لم يُرعَبِ أين من واجهه لم يهربِ
قال : يا ربى ويا روح أبى نجيانى اليـوم مما حلّ بى
قرب الوحشُ فهل من مهربِ منه فالوحشُ أتى فى طلبى

رفرفى فوقَ يا روح أبى
وارعنى يا ربّ مما حلّ بى!

الاسد : فأتى يجرى اليـه الأسـدُ قائلاً .قفْ أيها الانسان قفْ
قفْ وقل لى أى أمرٍ تقصدُ لاتُرعْ من هول بطشى أو تخفْ
ما الذي فى القفر هذا تنشدُ ستلاقى الموتَ ان لم تعترفْ
ما الذى بين الصحارى تجدُ قل بحقّ لىَ عنه وانصرفْ

أم تُرى تحسبنى أنت هدفْ
أم رماكَ اليوم فى أرضى السخفْ؟

يحيي : قال ما عنـدى خفىٌّ أضمرُ لا ولا كنت عدواً للاسودِ

ملكَ البيدِ الذى لا يجسرُ أي إنسان عليه فى الوجودِ
كنت من لقياك هذا أحذرُ يوم ساقتنىَ بيد بعد بيد
ولقد هدّم نفسى السفرُ ورمانى الحظُّ فى هولٍ شديد
إننى أقبلت من وادٍ بعيدِ
لى قصدٌ لا أنضعُ فيه جهودى

أيها الانسان إن شئتَ سلاما وأماناً لك من بطشى فعِدنى
إن بلغت القصد أونلت المراما ورأيت البخت ان تسأل عنى
تسأل البخت اذا بختك قاما عن حياتى والذى أبغى وأعنى
فاذا عدتَ فلا تخش الحاما لو حكيت الصدق فى حالى وشأنى
وسلام وأمان لك منى
أنت لو ترجع بالصدق فعدنى

إن بختى يا مليك الفلواتِ نائمٌ فى موطنٍ قفرٍ بعيدِ
كم عوتَ الحظَّ لم تنفع شكاتى أوصحا البختُ من النوم الشديد
ولكم أكثرت لله صلاتى طال فيها من قيامى وقعودى
ثم أشفقت على مرِّ حياتى حينما أبصرت حظى فى جحود
وهو يأبى لىَ أن يخضرّ عودى
أو أرى نجمىَ يوماً فى سعودِ

ولكىْ أوقظ حظى النائما جزتُ تلك البيدَ واجتزتُ القفارا
ربما أرجع يوماً سالما لبلادي وبها أجنى الثمارا
لم أكن فى أيّ قصدٍ حالما إنما أمّلتُ آمالاً كبارا
لا ولا كنت غبياً هائما حينما فارقت أوطاناً ودارا
أوقد العزم باضلاعىَ نارا
غير أن الحظ فى عمرىَ جارا

الاسد : لا تخف بل سر إلى البخت وسل لى بختك النائم عن أسباب جوعى
فاذا عدت فخبرنى وقل لى أى شىء مشبعى عند الرجوع
أنا لا أشبع من شرب وأكل لا ، ولا أهدء عن فتك ذريع
لا ، ولا أصبر عن سفك وقتل لا ، ولا أنهدأ عن شرّ ضلوعى
أسميعٌ أنتَ أو غيرُ سميعِ
هل دواءٌ عنده يبرئُ جوعى

لك هذا — ثم سار الرجلُ خائفاً يعبثُ فيه الوجلُ
يتهادى جزعاً لا يعقلُ ما الذى من بعد هذا يعملُ
سائلاً للنفس ما المستقبلُ أإلى شرّ جديد يُقبلُ
أم إلى خيرٍ عميم يقبلُ وسعى فى عزمة ينتقل
آملاً بالخير فيما يأملُ
آملاً لم ينبُ عنه الأملُ

وسعى حتى إذا ما ابتعدا واطمأنت نفسهُ من خطرِ
قال : يا نفسى أفى غير هدى كنت فكرتِ بأمر السفرِ
فشقائى ليس يُمحَى أبدا هو أنى كنتُ فى منتظري
ألاقى فى طريقى الاسدا أىّ بختٍ صاغهُ لى قدرى
نام حتى جزت بيد الكدرِ
ورأيت الهلك رغم الحذرِ

ها هو البدر مضىءٌ فى السما ملأ الكونَ بإشعاع الضيا
وتجلى الله فيما رسما وتجلت حكمة الله لبا
وبدا لى أنّ ما قد علما هو نزرٌ من عظيم خفيا
صورٌ تبقى وكانتْ قِدَما هى إذ تبقى كما كانت هبا
تنتهى والسرُّ فيها بقيا
بعدنا بين ظلام وضيا

وسَرَتْ بى ظُلَمٌ فوق ظُلَمْ كنتُ فى حالكها لا أبصرُ
كلُّ هذا كان قبلى فى القدمْ وسيبقى بعد موتى ينظرُ
والذى يغمرُ نفسى بالألمْ هو جهلى ما يريدُ القدرُ
انما عمرُ البرايا كالحلم ويُبين الغيبُ ما لا يضمرُ
ما حياةُ الناس إلا مظهرُ
خلفه منها عجيبٌ منكرُ

ظلَّ يمشى والأسى يتبعهُ وهو إلا عن لقاء البخت لاهى
فاذا صوتٌ علا يسمعهُ قائلا: قف! قال: ماذا يا الهى؟
ربما وافى الفتى مصرعهُ والفتى يسعى على غير انتباهِ
كلُّ صوتٍ واضح يفزعهُ كيف لا يفزعُ هذا وهو ساهى
وهو إلا عن لقاء البخت لاهى
وهو إلا عن طلاب السعد ساهى؟!

فرأى شخصاً عجيبَ المظهرِ أشعثَ الشعر غريبَ المنظرِ
وافرَ الهيبة جمَّ الحذر أشيب اللحية كثَّ الشعر
مستقيم العودِ ملءَ النظر واقفاً كالنسر بين الحُفر
وجهه فيه معانى الكدرِ لحظة من غيظه كالشررِ

قال ما عندك لى من خبرِ
أنت جن أنت ام من بشر!؟

الشيخ: ما الذى ساقك يا هذا الغريبُ ما الذى قادك فى هذا المكانِ
أنت فى عينىَّ مخلوقٌ مريبُ لم يَلُحْ لى فيك معنىً للامانِ
ألأمرٍ جئتَ أم أنت رقيبُ ترقبُ الغامضَ من حالى وشأنى؟
سترى موتك والموتُ قريبُ منك لو تكذب فى أىِّ بيان

واذا شئتَ سلامى وأمانى
قل لماذا جئتَ فى هذا الاوان

يحيى : قال فى خوفٍ أماناً وسلاما أيها الشيخُ أعرنى منك سمعا
لم أرد شرّاً ولاشئتُ اجتراما إننى أبعد عن ذلك طبعا
إن بختى أيهذا الشيخُ ناما فانا اليوم الى بختىَ أسعى
فاذا ما إن صحا بختى وقاما ورعانى وهو للانسان يرعى
عُدتُ أجنى النفع أوحاولت نفعا
وتخذتُ البختَ فى الايام درعا

الشيخ : فاذا ألفيته حدّثه عنّ ثم إن عدت أجبنى عن سؤالى
إن لى كنزاً عظيمَ القدر يُغنى ليس يجدينى ولا يُسعدُ حالى
ها هو الكنزُ قريبٌ هومنّى ثم لا أستطيعُ تصريفاً لمالى
أىُّ أمرٍ لىَ عن نفعىَ يُثنى ألأن الناسَ أعدائى حيالى؟
ما الذى يعرفُ فى تصريف مالى
ولأقضى العمرَ فى أسعد حالِ

يحيى : لك هذا ـ ثم ولّى ومضى بعد أن زوّده خير سلامِ
سار فى رحلته يطوى الفضا بفؤاد دائم الأشجان دامى
كلما جدّ الأسى يرمى القضا بملامٍ زاد عن كل ملام
لم يَعُدْ فى نفسه أىّ رضى عن حياة مابها أى انسجام
مرَّ فيها لم يهبأ لسلام
مَثَلُ الاعمى سعى بين الظلام !

بعد أن فارق هذا الرجلا ومشى ينهبُ قفر البيدِ نهبا
كان ان صادفَ صوتاً أجفلا ولوان الصوتَ صوتُ الريح هبّا
وبدا يبصرُ أشباحَ الفلا كجنود زحفتْ شرقاً وغرباً
فيرى منها فريقا مقبلا وفريقاً جدّ حتى ازداد قربا

وهو الأَّ عن لقاء البخت يأبى
زاعماً أنَّ المنى تزداد قربا

واذا ما حلَّ فى قفر رآه ... من بعيد لم تجده العين شيّا
ضجَّ بالنقمة وازدادَ أساه ... وسعى نحو مكان البخت سعيا
وأثار الذكر للماضى نهاه ... وأراه كيف أمضى العمر بغيا
ولقد يُحيي به الذكرى مناه ... ولقد يرمى بها النسيان رميا

كلما أثقله الفكر وأعيا
قال هيا أنت يانفسى هيّا!

ومضى يمشى على صبرٍ وصمتِ ... وسعى حتى رأى فى الافقِ
أثرَ العمران من نورٍ ونبتِ ... وبيوتاً فى حدودِ الشفقِ
قال : يا بشرى لقد أقبل بختى ... أبشري يامهمتى واصطفقى
أنت جاوزت حدود الصبر أنت ... وبلغتَ الآن حدَّ القلق

بعد أن ذقتِ جزاءَ النزق
حلّتى بين الأمانى حلّتى

بلغ المسكين سورَ البلدِ ... والدجى ينشر أستارَ الحلكْ
ورنا، ما إن رأى من أحدِ ... واضحٌ غير نجوم فى الفلكْ
سائرات مالها من مقصدِ ... كل نجم سالكٌ فيما سلكْ
قال : ما لى ضائعٌ لا أهتدي ... لمكان البختِ اهل بختى هلكْ ؟

إيه يابختىَ ماذا جدَّلكْ
أسدٌ لاقيتَه أو فتلكْ

إننى أنحى علىَّ التعبُ ... وتولانى من المشى النصبْ
تعبتْ نفسى وعزَّ المطلبُ ... واذا ناديتُ بختى لم يجبْ
« نم إلى الصبح » لعلى أرقبُ ... فى صباح الغدِ فى الأرض سببْ
سبباً يدنو به لى الاربُ ... فلقد متُّ وما نلتُ أربْ

وحياتى عجبٌ تلو عجبْ
ملأ حى غاضَ فيها ونضبْ

همّ أن يرقدَ والنومُ اذا ما ... مَلَكَ الاجفانَ فيها مَلَكُ
واسعُ السلطان لم يخشَ انهزاما ... ولأرواحِ الورى يمتلكُ
هو عصفورٌ على الاوكارِ عاما ... وهو انّى سار غبها يسلكُ
ملكٌ عند ضياء الشمس نامًا ... فاذا مالت دعاه الحلكُ

فاذا النوم علينا مَلِكُ
يملكُ الارواحَ فيما يملكُ

ورأى الحراسُ فى الليل شبحْ ... فتناجوا لحظةً ماذا يكونْ
انّه جاسوسُ أعدانا فُضِحْ ... أمسكو فلأعدانا عيونْ
فهو لو يتركُ بالامر نجحْ ... وهو لا يعلم ماذا يعملونْ .
فاذا ما اقتربوا منه وضحْ ... ورأوا وجهَ الفتى رأىَ اليقينْ

وهمو من فوقه لايبرحونْ
حاملين الموتَ فيما يحملونْ

ثم صاحتْ بالفتى تلك الجنودُ ... صارخات فوق أسوار البلدْ
أنت ياهذا الفتى ماذا تريدُ ؟ ... قفْ والا متَّ ياهذا النكدْ!
قف فما يجديك سعىٌ أو يفيدُ ... لا، ولا ينجيك دفعٌ أو جَلَدْ
وكأنّ الصوت فى الليل رعودُ ... قال« ويحى ليت أمى لم تلدْ »

ما الذى فى هذه الليلة جدْ ؟
هل لبؤسى أو لا لامىَ حَدْ

أمسكوا المسكين فانقادَ لهمْ ... وهو لا يعلم ماذا يضمرونْ
هو يفنيه شقاءٌ وألمْ ... وهمو فى قسوةٍ لايرحمونْ
وكأنى بفتانا فى حلمْ ... تتلقى نفسه أيدى المنونْ
وهو يسعى حيث يسعى للعدم ... وهمو من شانه لا يعلمونْ

غير جاسوس لأعداء خؤون
سوّلت للجند ما شاءوا الظنون

أصبح الصبحُ فقادوا الرجلا كاسفَ البالِ امامَ الملكِ
وهو يكتم فيهم وجلا وعجيبٌ أنه لم يهلكِ
فلقد لاقى الأذى واحتملا منهمو كل عذابٍ مهلكِ
وهمو مهما أتى أو عملا سلكوا فى الامرِ شرّ المسلكِ
وهو فى قسوتهم لم يسلكِ
بينهم إلا جميلَ المسلكِ

سُئل المسكين ماذا أمرهُ قال : لا انطق إلا فى أمانِ
قيل : ماذا شأنه أو عذره لا تخف من ملكٍ جمّ الحنانِ
ملكٌ بالعدل يجرى أمرهُ هو فى الامة معبودُ الزمانِ
ملكٌ بالحلم يسمو قدرهُ لا تخف من حلمه أىَّ افتتانِ
كل من يقصدهُ فى أى شأنِ
حقق الله له كلَّ الامانى

قال : إنى رجلٌ لا شأنَ لى بكمو قطُّ ولا لى خَطَرُ
لىَ بختٌ نائمٌ فى معزلٍ هو لى أنّى سعيتُ الوطرُ
سرتُ لما أن دعانى أملى نحوه والبختُ عنى مدبرُ
لو صحا يبسمُ لى مستقبلى وأرى الدنيا لنفسى تزهرُ
ولقد هدَّم نفسى السفرُ
وأرانى منه ما لا ينظرُ

يا مليكى قصتى تحزنُ مَنْ عرف الأيام فى قسوتها
إنما الدنيا مجالٌ للفتنْ ترهب الالباب من شدتها

لم تدع لى من ديارٍ أو وطنْ تركتنى ضائعا فى مقتها
كلما زادتْ أذًى زدت ضمنْ واعترانى الضعفُ من قوتها
أين ذلى ، أين من عزتها؟
أين ضعفى أين من شدتها ؟

وحظوظٌ هذه الدنيا فمنْ تعس فيها وكم فيها سعيدْ
كاذب فى شرعة الأيام منْ قال أنى بالغ ما قد أريدْ
غافلٌ يسعدُ إذ يشقى الفطنْ هكذا الدنيا فما فيها جديدْ
هكذا يجرى كما يجرى الزمنْ ما له إن هو ولّى من مقيدْ
فشقىٌّ فى البرايا وسعيدْ
قسمٌ ما إن لنا عنها محيد

يا مليكى هكذا شأنُ القدرْ جعل اللهُ لك الدنيا سلاما
كل ما أبغيه أن دعنى أمرّْ نام بختى وهو لا يبغى قياما
فاذا أيقظته أجنى الثمرْ ثمرَ الجهد فقد متُّ سقاما
وأمىَ ما بين مشيٍ وسفرْ لم يدع لى باقياً الا عظاما
وازال الهمُّ عن عينى المناما
جعلَ الله لكَ الدنيا سلاما

لا أراك الله بطشَ الزمن ورعاك الله مما يحزنُ
قصتى تحزنُ من لم يحزنِ لا جميل سردها او حسنُ
لم يجر فى مهجتى او بدنى غير سعيي نحو ما قد يمكنُ
نحو بختى وهو لا يرضى هو فى قفرٍ بعيدٍ يسكنُ
ورجوعى بمرادى ثمنُ
لشقاءٍ ذكره لا يحسنُ

لا تضع جهد حياتى يا مليكى وكفانى كلّ ما ضمتْ حياتى
فلقد ثارتْ من الدنيا شكوكى فى وجودى وترقبتُ مماتى
يا سليلَ المجد يا خيرَ الملوك لا تزد فى شقوتى قبل وفاتى
خلنى امضى لحالى يا مليكى لا تزد فى شقوتى او حسراتى
فلقد تجديك يوما دعواتى
حينما تصعد لله صلاتى